القديسة كاترينة

شهيدة الإسكندرية



من سير القديسين والقديسات

٣

القديسة كاترينة

شهيدة الإسكندرية

دار مجلة مرقس

كتاب : القديسة كاترينة
المؤلف : دار مجلة مرقس
الطبعة الأولى : ١٩٦٥
الطبعة الثانية : ١٩٨٧
مطبعة دير القديس أنبا مقار — وادي النطرون
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٨٦/٥٩٦١ .
الترقيم الدولي : ٩ ٠٥٨ ٤٤٨ ٩٧٧

الناشر : دار مجلة مرقس
٥٠ «أ» شارع شبرا — القاهرة
ص . ب ٣١ شبرا — القاهرة ت ٧٧٠٦١٤

المحتوى

أيقونة غلاف الكتاب: من الأيقونات الأثرية المحفوظة بديرها ببرية سيناء. ويرجع تاريخ رسمها إلى عام ١٦١٢ م. بيد الراهب إرميا من كريت.

مقدمة

نقرأ في هذا الكتاب الصغير قصة حقيقية لشهيدة الإسكندرية القديسة كاترينا... وفي متابعتنا لهذه القصة تأخذنا الدهشة والعجب لشجاعة تلك الفتاة الحديثة السن، وحكمتها وقوة شخصيتها... ونكاد لا نصدق بعقولنا أن هذا حدث يوما ما أو يمكن أن يحدث مرة أخرى...

والحق أن ما أتته هذه الفتاة، وما احتملته من أجل عريسها يسوع المسيح ــ الذي ملك كل قلبها ومشاعرها... لا يمكن أن يأتيه إنسان عادي مهما أوتي من الشجاعة والإقدام! فالقصة تكشف لنا عن سر، وتزيح لنا الستار عن لغز غامض في حياة أولاد الله...

السر هو أننا نحن الذين آمنا بيسوع المسيح ووُلدنا ثانية بغَسْل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس... فينا قوة كامنة جبارة تفوق كل قوى العالم بأسره، وتغلب جيوشه وعلمه وعلماءه مجتمعين... ولا تنطلق هذه القوة وتظهر فاعليتها إلا إذا انسحقت نفوسنا تماماً وأنكرنا ذواتنا بالكلية ووضعنا في قلوبنا حكم الموت وقبلنا آلام المسيح وصليبه علينا بلا تهرب، ورضينا أن نتصرف كأموات عن العالم لا تغرينا ملذاته ولا تلهينا مباهجه عن المجد العتيد أن يُستعلن فينا...

إننا نؤكد هنا إنكار الذات وحمل الصليب كأول شرط لاتباع المسيح... ولم نأتِ بجديد ولكننا نكرر قول الرب يسوع «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني».

وإنكار الذات ليس فقط إنكار رغائبها وملذاتها وكبريائها وعلمها ومواهبها،

ولكنه أيضاً إنكار ضعفها وجهلها وعجزها تجاه الأمور التي تراها فوق إمكانها، والثقة في قوة ذاك الذي به وله كل الأشياء... ففي إنكار الذات إيمان عظيم بالله...

وفي إنكار الذات أيضاً تسليم كامل لإرادة الله... فإن كنتُ أُنكر ذاتي لكي يعمل فيَّ الله، فيجب أن أقبل عمله فيَّ مهما كانت النتيجة، حتى لو قادني إلى العار والآلام والضيقات والتشريد والموت...!!... فلا يكون إنكار الذات كاملاً إذا كنت أقبل عمل الله فيَّ فقط إذا قادني للنصرة والسلام الراحة والأفراح... «... فلينكر نفسه ويحمل صليبه...»

وهذا ما حدث مع آبائنا الشهداء، ومع قديستنا الشهيدة كاترينا التي تبعت المسيح عريسها الحبيب حتى العذاب والموت... ذلك لأنها أحبت الرب يسوع من كل قلبها «مَنْ سيفصلني عن محبة المسيح»، ولم تشكّ في قوته القادرة أن تخلّصها من أيدي أعدائها ومن الموت «فإني واثقة بمن آمنت...»، ولكنها لا ترى في الموت خسارة أو هزيمة بل ربحاً وكسباً عظيماً وإكليل مجد واتحاداً دائماً بالمسيح يسوع «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً».

وهكذا نرى في الإستشهاد إيماناً ورجاءً ومحبة، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة... ولكن ليس الإستشهاد بالضرورة سفك دمائنا على اسم المسيح له المجد... وكأنه ما لم يكن هناك تقتيل وذبح فليس مجال للإستشهاد...!

وإنما الإستشهاد أساساً هو مصارعة الخطية حتى الدم... والشهادة للرب يسوع بالفعل والقول أمام الجميع بلا خوف ولا توقف، والدفاع عن حق الإيمان المسلَّم مرة للقديسين بلا استهانة ولا تردد.

فالمسيحية كلها استشهاد... «من أهلك نفسه من أجلي يجدها».

«لأنه وُهب لكم... لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا من أجل اسمه» . فلنتقدم إذاً ــ يا إخوتي ــ إلى مسيحنا بقلوب ثابتة ، قد عقدت العزم على السير وراءه مهما كلفها الأمر، مستعدين أن نبيع حياتنا ومستقبلنا وراحتنا وأموالنا وكرامتنا من أجل فضل معرفته... لأننا بدون ذلك لا يمكن أن نكون مسيحيين ، بل أيضاً نحن لا نستطيع .



أيقونة القديسة كاترينة وبها ستة مشاهد من حياتها: في أعلى اليسار تراقب القديسة يسوع المسيح الطفل في حضن أمه العذراء وهو يشيح بوجهه عنها وذلك في حلمها قبل معموديتها. وفي أعلى اليمين حلم القديسة بعد معموديتها والطفل يسوع يلبسها خاتماً في يمينها. وفي الوسط من جهة اليسار تتكلم القديسة مع الإمبراطور، وأسفلها وهي تعلم الإمبراطورة. أما في الوسط من الجهة اليمنى قطع رأس القديسة. وأسفلها نقل الملائكة لجسد القديسة إلى الجبل المدعو باسمها.

هذه القديسة المصرية

هذه القديسة لا يعرف عنها أحد شيئاً . مع أنها عاشت في مدينة الإسكندرية ، ومواقفها اتسمت بالشجاعة والجرأة المقدسة. كل ذلك كان علانية أمام الإمبراطور الروماني .

وربما لا يحمل أي أثر قديم معروف اسم القديسة كاترينة ، ولكن أوسابيوس ــ في تاريخه ــ تكلم عن امرأة عجيبة (دون أن يسميها) كان لديها الشجاعة أن توبخ مكسيميانس الإمبراطور، وجهاً لوجه ، على المعاملة البغيضة التي بلي بها سيدات وفتيات العائلات النبيلة جداً .

ولكن الذي نقل لنا تاريخ حياة هذه الفتاة المسيحية الباسلة هو سمعان المتافرستي . وكان يعيش في القرن العاشر الميلادي . ترك لنا تاريخ هذه الشهيدة ضمن تاريخ ١٢٢ شخصية مسيحية أخرى ، سجلها في موسوعة «أخبار القديسين» أو «السنكسار» جمعها من أساقفة الكنائس والأديرة. وكان بحكم عمله كرئيس للمجمع الخاص بتسجيل أخبار القديسين ، يستقصي من هنا ومن هناك عن كل قديس أو قديسة لمع اسمه أو اسمها في سماء الكنيسة كالكواكب في جلد السماء .

□□□

وحياة كاترينة تصور لنا ضمن ما تصوره نوع الحياة المسيحية الفائقة التي كان يعيشها الناس داخل المدن ووسط المخازي والفجور الذي كان يملأ الإمبراطورية الرومانية من قصر الإمبراطور في روما إلى دار الحاكم المحلي في المستعمرات إلى العبد الحقير في بيوت الأشراف الرومانيين . تصوّر لنا شخصية فتاة مسيحية لم تتعدَّ الثامنة

عشر من عمرها، لكن الإيمان كان راسخاً في قلبها، وروح الشهادة كانت عندها. فلم تُطِقْ أن تسكت على أعمال الظلمة بل صممت أن توبخها علانية حتى ولو كان الإمبراطور نفسه هو الذي يصنعها.

نقدمها إلى كل فتى وفتاة في القرن العشرين ليقتدوا بها... لأن الله... الذي أعطى كاترين، هو الذي يعطي كل من يفتح قلبه لله ليعمل فيه بروحه القدوس...

كاترينة في صباها
تتعرف على عريسها السماوي

في مدينة الإسكندرية حيث كانت تزخر بأشرف الأُسر المصرية العريقة... عاشت أسرة شريفة القدر، ذات ثروة وشهرة، ورثت كل عادات الفراعنة من حكمة وأخلاق وأصالة... ولكنها تقدست أيضاً بروح يسوع المسيح ابن الله المتجسد.

كانت عائلة مسيحية حقاً...

ومثل مئات الأسر المسيحية في ذلك الوقت، كانت الأم تشعر بأنها مجدٌ لزوجها. والأب كان يحب بيته كما أحب المسيح الكنيسة، كانا يصليان معاً ويصومان معاً... يفرحان بزيارة المريض وتشجيع المسجونين من أجل الحق، أولئك الذين كانت تعج بهم السجون الرومانية في الإسكندرية. كانا يتباريان ويتسابقان في تسبيح الله. في أحد أركان المنزل كان هناك ركن للصلاة يلجأ إليه الوالدان يومياً في قلب متشابك ليقدما صلاتهما إلى الله لكي يبارك بيتهما ونسلهما ليصير في البيت كنيسة، والساكنون فيه هياكل حية لروح الله.

في هذا الجو المقدس وُلدت كاترينا. ومع أن والديها كانا من سلالة الملوك إلا

أنهما لم يكونا يفخران أمامها إلا بشرف نسبهم للرب يسوع المسيح الذي هو «بِكْرٌ بين إخوة كثيرين». ودفعتها هذه التربية أن تحتقر كل بهارج الإسكندرية ومسارحها وساحاتها وفسادها وتعلّق قلبها بما هو أسمى وأكمل... بما يدوم إلى الأبد... بغنى المسيح الذي لا يُستقصى.

ونشأت كاترينا ترضع لبن الإيمان العامل من بين أحضان أمها المسيحية الحقيقية... لقد قال الفيلسوف الوثني ليبانيوس مرة عن أمهات المسيحيين: «ما أعظم النساء عند المسيحيين». وذلك لمّا شاهد يوحنا فم الذهب تلميذه، وما بذلته أمه من أجله، وكيف ربّته وأنشأته رجلاً مسيحياً بالحق... وهكذا كانت أُمُّ كاترينا تُرضعها حب الله وتكريس الحياة للرب يسوع المسيح وحب الغير وعدم التعالي أو الكبرياء. وغذّتها أيضاً بسيَر البتولات والشهيدات اللواتى عِشنَ في الإسكندرية أيامها أو قبلها بقليل.

وأدخلتها أُمها أعظم مدارس عصرها فتعلمت أحدث العلوم العصرية إلا أنها كانت مثابرة باجتهاد على قراءة الكتاب المقدس والتأمل في حياة الرب يسوع. وكانت كلما تقدمت في عمرها وفي علمها كلما ازدادت حباً ليسوع وتعلُّقاً بشخصه المبارك.

... ولكن... لم تكن كاترينا قد اقتبلت نعمة الدخول في سِلْك الجندية ليسوع المسيح: لم تكن قد اقتبلت سر العماد بعد. مع أن معمودية الأطفال المسيحيين كانت أمراً عادياً بين أُسر المسيحيين منذ العصر الرسولي. وفي مصر بالذات فتح معلم الكنيسة المشهور «أوريجانوس» فصلاً للأطفال المعتمدين ليعلمهم طريق الإيمان ومباديء الملكوت، وذلك في مدرسته اللاهوتية الكبيرة بالإسكندرية.

ومرة رأت كاترينا في نومها حلماً أزعجها وسبَّب الكآبة في نفسها... رأت

الـبتول مريم تتقدم نحوها حاملة على ساعدها طفلها يسوع . وسمعتها تقول له : «أنظر إلى ابنتي كاتر ينا» . ولكن الرب يسوع أدار رأسه ولم يلتفت إليها وقال لأمه : «إنها ليست جميلة لأنها لم تُعمَّد بعد» !!...

وأفـاقـت كـاتـر يـنـا وعـلـمت أنها رؤ يا . وعرفت أن الرب يسوع ير يد منها أن تـغتسل بالمعمودية لتصبح عروساً خاصة له . فقصَّت على والديها ما رأته في حلمها... واستقر رأي الجميع أن يخضعوا لمشيئة الروح وقدموا كاتر ينا للعماد...

وفي الـيـوم المعـهـود تم الـعـماد ــ بواسطة الكاهن ــ على يد شمَّاسة الكنيسة . ولـبست كاتر ينا الثياب البيضاء ، وأُضيئت الشموع ، وأَخَذَت الجوقات الملائكية على الأرض تـنـشـد تـسـابـيحها لولادة ابنة جديدة لله . ولكن كاتر ينا كانت تشعر بـشـيء آخـر... لـقـد كـانـت تـرى في هـذه الـتـسابيح إحتفالاً بزفافها إلى عر يسها وحـبـيبهـا الـرب يـسوع المسيح الذي لبست اليوم ثياب الخلاص البيضاء من أجله وحده .

ولـيـلتهـا رأت كـاتـر ينا حلماً جديداً... لقد ظهر لها الرب يسوع من جديد ومعه الأم الـبتول وجوقة من الملائكة والعذارى ، وأعلن أمامهم أنه اتخذها عروساً له... ثم أَلْـبَـسَـهـا خـاتـماً في يمـينها علامة على ذلك الوثاق السماوي الروحي . واستيقظت كـاتـر يـنـا ورأت في يـدهـا خـاتماً حقيقياً ، ... فعلمت أن الرؤ يا كانت حقيقية ، فـامـتـلأت فرحاً ونشاطاً في الإيمان ومحبة فائقة مضطرمة للفادي المخلِّص ولأُمه ملكة العذارى... (وتشبُّهاً بخاتم كاتر ينا تلبس كل راهبة في الكنيسة الغر بية خاتماً رمزاً لتكر يسها للرب يسوع).

وتـشـوقـت كـاتـر يـنـا فـوق ذلك كله أن تبذل حياتها حتى الدم في سبيل ذلك العر يس الإلهي المجيد .

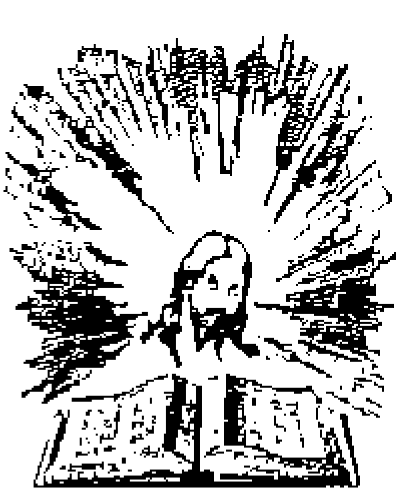
بـالـثـيـاب الـبـيـضـاء خرجت كاتر ينا من الكنيسة ، و بالثياب البيضاء ظلت

تعيش أيضاً... إن هذه الثياب تشير إلى النقاء والطهارة التي أنعم الرب بها على قلوب أبناء المياه المقدسة... لهذا فإن فتيات الإسكندر ية كُنَّ يفضِّلْنَ أن يستعملنَ الثياب البيض دليلاً على نقاوة قلوبهن وتكر يسها لحب الفادي وحده.

وكانت كاتر ينا شديدة الذكاء مشتعلة الغيرة على نشر الإيمان المسيحي... وكان من حسن حظها أنها تعيش في مدينة الفلاسفة والعلماء بل في المدينة التي تضم مدرسة أوريجانوس الشهيرة التي علَّمت أكابر القوم وفلاسفتهم وصيَّرتهم متعمقين في كل معرفة لاهوتية. وأرادت كاتر ينا أن تعرف الله أكثر، وحينما تعرفه أكثر فسوف تحبه أكثر. فأكبَّت بلهفة على درس علم الفلسفة وعلم اللاهوت على يد أكابر العلماء المسيحيين و برعت فيهما حتى أضحت من الأئمة بين فلاسفة ذلك العصر، لكنها مع ما صارت إليه من غزارة العلوم وفصاحة البيان بقيت وديعة في إخلاصها، بسيطة في حياتها، متواضعة في معشرها، بعيدة عن كل صَلَفٍ وإعجاب بنفسها.

و بلغت كاتر ينا الثامنة عشر من عمرها وأَضْحَت جميلة الطلعة جذابة الشخصية ولا سيما أنه كان ينبعث من حديثها وحركاتها الحياء المسيحي وأر يج الفضائل الملائكية الأخاذة.

أما هي فكانت تستخدم تلك القوى التي أودعها الله إياها للدفاع عن الإيمان وتثبيته في القلوب ونشره بين الجموع. لأنها كانت تؤمن بأن إيماناً بدون شهادة لا قيمة له... لذا فكانت تشهد لمن آمنت به وتدعو الجميع أن يسعدوا بمن سعدت هي به قبلاً.





منظر حلم القديسة كاترينا
بعد معموديتها

كاترينا تتقدم الصفوف

كانت المملكة الرومانية نحو عام ٣٠٦ ميلادية مقسمة بين القياصرة الثلاثة قسطنطين الكبير، وليسنيوس ، ومكسيميانس .

وكانت مصر تابعة لإمارة مكسيميانس هذا . وكان هذا القيصر مستبداً عاتياً متكبراً يبغض المسيحيين ويحلو له الفتك بهم وتعذيبهم . فأراد أن يبهر مصر بغناه وسلطانه ، فأصدر منشوراً بتجديد الشعائر الدينية الوثنية التي هجرها الناس : فعلى كل واحد أن يذهب إلى المعابد و يقدّم قرابين للآلهة . أما الذي يعصى هذا الأمر فإنه يخاطر بحياته كلها .

وكان أمر الإمبراطور يقع على مصر بالذات لأن المسيحية كانت قد تغلغلت تغلغلاً شديداً وسط صفوف المصريين . وكانت «مسيحية» المصريين من نوع عجيب يقلب الحياة العابثة إلى حياة وقار ووداعة ، و يغلب القلوب القاسية فيحولها إلى قلوب ممتلئة محبة وحناناً ، و يسلب النفوس الزانية فيكرسها نفوساً عفيفة للرب يسوع .

ورأى مكسيميانس أن المسيحية ليست ديناً نظرياً كالدين اليهودي إذ أنها أثّرت حتى في أخلاق غير المسيحيين وجعلتهم يشمئزون من أوثانهم وآلهتهم الخرافية ، فضعف فيهم حماسهم لإحياء شعائر هذه الوثنية العتيقة .

وعبّأ الإمبراطور كل جهوده لإذكاء روح الغيرة لتنفيذ هذا المنشور الجديد . فبادر بإشعال الحماس في خاصّته ، وأشعل تعصب العامة . ولابد أن نعترف أن الأشرار كانوا أكثر بكثير جداً من الأبرار في هذه المدينة العظيمة...

وأطاع الكثيرون المنشور... و بالطبع لم يكونوا من المسيحيين ، وذهبوا إلى المعابد يحملون معهم الضحايا للذبح . ولم يتوقف الدخان الصاعد من الذبائح طيلة النهار وجزءاً كبيراً من الليل لأن الذبائح التي كانت تقدّم محروقة بالنار كانت كثيرة جداً...

نجح الإمبراطور في إخضاع الناس له ، وإذ أراد أن يكافئهم نظّم حفلاً كبيراً وطلب أن يُقدَّم فيه عشرون عجلاً ذبيحة للآلهة ، وأصدر أمراً بأن كل من لا يشترك في ذلك الإحتفال وتقدمة الذبائح لآلهة المملكة موتاً يموت...

أما المسيحيون فقابلوا هذا الأمر بموجة من الإحتقار للأوثان ، لأنهم لا يعرفون إلهاً سوى يسوع... ولا يعتبرون لهم سنداً ولا عضداً سوى الرب يسوع المقام من الأموات... وارتاع كثيرون من المسيحيين لمّا رأوا عهد الإضطهاد يتجدد بعد أن ظنوه قد باد بموت ديوكلتيانوس أقسى المضطهدين .

ورأت كاترينا ذلك ، وشعرت بأن الرعب قد بدأ يدبُّ في قلوب المسيحيين فعزمت على أمر ما .

كانت تخرج من قصرها كل يوم وتطوف في شوارع الإسكندرية وتدعو المسيحيين إلى اجتماعات خاصة وتشجعهم وتثبّت عزائمهم وتُزهدهم في الحياة وفي نعيم هذا الدهر طمعاً ورجاءً بأفراح الدهر الآتي .

وكان عجباً في بادىء الأمر عمل فتاة في الثامنة عشر من عمرها . لم تفكر في ما يمكن أن يترتب على ذلك من نتائج ، كانت مستعدة حتى الموت... وكانت تعتقد أن شهادتها للرب يسوع المسيح لا تكمل ولا تثبت إلا بالدم !...

وشاع اسم كاترينا على كل لسان في بيوت المسيحيين في الإسكندرية ، وانقاد

لكلامها الشيخ والشاب والفتى والفتاة والآباء والأمهات. وعادت لهم غيرة آبائهم، فبعد أن كانوا مضطربين عادوا يطلبون أن يقترب هذا اليوم الموعود لكي يقدموا نفوسهم ذبيحة لإلههم المحب الأمين.

وملأ الرب قلب كاترينا بغيرة أوفر... فأرادت أن تعطي مثلاً عالياً للمسيحيين فلا يهابون الموت ولا الاستشهاد متى دعاهم إلى ذلك واجب الطاعة لإيمان يسوع!... فقررت أن تواجه الإمبراطور نفسه حينما يحضر هذا الحفل الكبير وتحاجه وجهاً لوجه...

أمام الإمبراطور

في يوم الإحتفال الكبير... كانت فتاة صغيرة تخترق الكتل البشرية، تسير بخطى ثابتة كأنها مُقْدِمَةٌ على مهمة خطيرة... ودنت كاترينا من المعبد الملاصق للقصر الذي حلَّ فيه الإمبراطور بالإسكندرية ورفعت إلى الإمبراطور بواسطة الحراس رغبتها في أن تقابله...

وأتت الموافقة... وتقدمت كاترينا إلى داخل القصر، وكان روح عريسها يؤيدها من الداخل ويسندها ويملأها ثقة وطمأنينة... وحينما دخلت، رأت الإمبراطور جالساً وحوله الوزراء والقواد والضباط وكهنة الأوثان الرافلين بالحلل الأرجوانية المذهبة استعداداً للإحتفال العظيم بتقديم الذبائح.

وقدمت كاترينا تحياتها إلى الإمبراطور، ثم بدأت معه كلامها بهدوء قائلة:
ـــ إني سأكون مسرورة جداً، حينما يعرف سيدي الإمبراطور خطأه والنتائج الخطيرة لمنشوره الأخير...

وأخذت كاتر ينا تتكلم في هدوء... وأنصت الوالي في هدوء أيضاً ، وقد ذُهل من ذلك التأثير والنفوذ اللذين انبعثا من شخصية الفتاة. وطفقت كاتر ينا تحدّثه عن الحياة المشرقة التي عاشها الناس العظام الذين تمجدوا (كالآلهة) بأمجاد الله في السماء...

ثم ناشدته كاتر ينا أن يعطي قلبه لملك السماء الذي بيده مقبض الصولجان والذي سوف يدينه على أعماله يوماً ما .

وتركها مكسيميانس تتكلم وهو متذرع بالصبر، وقاوم في نفسه الشعور بالسخط والغضب الذي كان يهز نفسه من آن لآخر... وعندما انتهت من كلامها ، أنهى حديثه معها ببعض الكلمات الطيبة ورجاها أن تنتظر حتى يقدم ذبائحه ثم يتفرغ للسماع لها .

وانصرفت كاتر ينا مبتهجة ، إذ حُسبت أهلاً أن تقف أمام ملوك وولاة من أجل اسم المسيح ، أما الإمبراطور فقد توجّه إلى الإحتفال الكبير وقدم ذبائحه إلى آلهته الشياطين ثم عاد بين تهليل الناس ور يائهم .

□□□

شاع في كل مدينة الإسكندر ية خبر تلك الفتاة التي قابلت الإمبراطور في قصره وعن جسارتها وإقدامها على مخاطبة الإمبراطور بذلك الكلام الرائع ، فسبَّح المسيحيون الرب وثبتوا أكثر في الإيمان، وأخذت العذارى المسيحيات يباهين بكاتر ينا رفيقتهن وزميلتهن ويجاهرن بالإيمان و يتغنين بعذو بة الموت حباً له .

وعاد الإمبراطور يطلب كاتر ينا . فأتت إلى قصره فخاطبها قائلاً :

ـــ والآن أيتها الصغيرة أخبر يني ماذا تر يدين ، وكرري عليّ الكلمات التي رددتيها على مسامعي منذ وقت قر يب . وما نَسَبُكِ وما عملك ؟

ـــ سيدي القيصر المبجل ـــ أنا كاترين، ونسبي معروف في الإسكندرية وأجدادي هم من أشراف المملكة. لقد وقفت حياتي سعياً وراء معرفة الحقيقة. وقد درست كثيراً من العلوم والبلاغة والفلسفة وإني متبحرة فيها. ولكن كل هذا لايزيد عن كونه في نظري نفاية في سبيل معرفة يسوع المسيح معلمي وعريسي.

واستمرت كاترينا طويلاً في الكلام... وظلت تحاجحه إلى أن أثبتت له أن كل آلهة الوثنيين هي بالتأكيد شياطين...

وأحرجت كاترين الإمبراطور ووضعت كرامته الملكية في مأزق، بعد أن أثبتت أن كل آلهة الأمم شياطين. وشعر مكسيميانس بالعار عند سماعه لهذه الكلمات، فأجابها برفق:

ـــ لست مُلِمًّا كما ينبغي بعلوم الفلسفة لأرد على كلامك لكني سآتي بعلماء المملكة وهم يعرفون كيف يهدمون ما بنيتيه من العقائد التي يتراءى لكِ أن لا مَرَدَّ عليها. وسيُظهرون لكِ أن ما تعتقدين به هو كفر وإلحاد!...

فقبلت كاترينا وسلّمت وخرجت...

كاترينة تشهد للرب يسوع

أرسل مكسيميانس إلى كل علمائه يطلب أذكى من فيهم ليناظروا تلك الشابة المغرورة بعلمها والمستسلمة ـــ حسب ما يرى هو ـــ لحماس الشباب وغروره... فذاع خبر ذلك في جميع الأمصار... وبات الجميع ينتظرون على أحرّ من الجمر يوم تلك المناظرة العظيمة التي لم يسبق في تاريخ المملكة أن ذكر نظيرها.

أما كاترينا فإنها قضت أيامها في صلاة وصوم بتواضع أمام الله متضرعة إلى

عريسها السماوي أن يؤازرها بروحه القدوس وأن يتكلم بفمها في تلك المعركة الخطابية الكبرى.... .

وفي مخدعها بقصرها... ظهر لها ملاك يقويها، و يعدها بالمساعدة والمعونة.

أما سائر المؤمنين فكانوا يصلُّون لأجلها كما فعلت الكنيسة حينما كان بطرس الرسول في السجن.

وأخيراً ــ أتى اليوم المعهود وأخذ عظماء المملكة والقواد يجتمعون وأتى العلماء يتبعون كبيرهم، إلى قاعة كبيرة في القصر.

ودخل الملك في عظمة وجلال فوقف الجميع إكباراً...

ودخلت كاترينا فحامت حولها الأنظار ودَاخَلَ المسيحيين الخوف عليها أن تأخذها رهبة المقام أمام ذلك الحشد من الشيوخ والمتضلعين في الجدل والمنطق والفلسفة فتهيب ولا تقدرعلى الجواب.

وكانت كاترينا تعبر أروقة القصر، وكعادتها بدت متواضعة مبتسمة ولم يَبْدُ عليها الإضطراب من هذا المجمع الأثيني العلمي الذي سوف تتناقش معه الآن.

وكان قد أُعلن لرجالات البلاط ولصفوة النبلاء الإسكندريين عن الميعاد سراً وأن صالات القصر ستفتح لذلك الظرف فأتوا من كل حدب وصوب. وامتلأت القاعة من أكابر القوم.

+++

بدأ عميد العلماء بالكلام قائلاً للفتاة:

ــ أيتها الأميرة النبيلة، إنكِ تستحقين اللوم الشديد لأنكِ تكلمت عن مقدساتنا بتلك الجسارة والإستهتار!

فأجابت كاترينا بهدوء:
ــ من جانبي لا أعتقد أن تهمة الجسارة والإستهتار تنطبق عليَّ! وعليك أن تتكلم بأدلة منطقية...

ــ إذا كنتِ قد قرأتِ الشعراء فسوف تجدين ألقاب المجد التي أسبغوها على الآلهة المقدسين. إن الكلمات العظيمة التي بها نمجد الآلهة بعيدة عن أوصافك المحتقرة لهم.

ــ من هم هؤلاء الشعراء؟ وما هي الأوصاف الجميلة التي أسبغوها على آلهتك؟

ــ هوميروس، على سبيل المثال، يُلقب جوبيتر «الأعظم والأمجد». وأورفيليوس تكلم عن أبولُّو وقال عنه «الكلي القدرة الذي يرى الآلهة و يأمرهم». واستطيع أن أذكر أضعاف تلك المواقف وأحصي لكِ عدداً من الشعراء الآخرين الذين مجدوا آلهتنا. وأيضاً لم يقل أي واحد من هؤلاء الشعراء أن الرجل المصلوب الذي تؤمنين به إله!

وكانت كاترين تصغي لهذا الكلام وهي مطرقة الرأس إلى الأرض. ثم رفعت رأسها فاشرأبت لها الأعناق و بدأت خطابها بصوت واضح رنان، و بعد مقدمة بديعة، أخذت تفيض بياناً بلغة يونانية موسيقية رقيقة... وقسمت دفاعها إلى أقسام ثلاثة و بدأت أول قسم قائلة:
ــ لقد قلت أن الشعراء تكلموا كثيراً عن آلهتك. وأنت لا تستطيع أن تنكر أن هؤلاء الشعراء أنفسهم تفوهوا على نفس هذه الآلهة باختلال عقولها، وآخرون كثيرون نسبوا إليها أعمالاً كريهة وجرائم من مختلف الأنواع ــ هوميروس الذي مَجَّدَ جوبيتر بالكلمات الجميلة التي قلتها ــ شتمه في وجهه مرات بالكذب

والضلال والعجز والسرقة .

ثم أوردت أقوال بعض الشعراء من أن وجود هؤلاء الآلهة لا يتجاوز بضعة أجيال وأن بعض الفلاسفة أقروا أن لا وجود لها إلا في مخيلة الشعب البسيط .

ثم انتقلت كاترينا إلى القسم الثاني من خطابها فأوضحت أن الفلسفة الصحيحة المبنية على المنطق لا تستطيع أن تعترف إلا بإله واحد خالق السموات والأرض ومبدع جميع الكائنات فقالت : سوفوكليس يؤكد أنه من بين الأخطاء المتأصلة بين البشر إكرامهم وعبادتهم للصور والتماثيل الكثيرة للآلهة لأنه لا يوجد أبداً ــ بحسب قوله ــ إلا إله واحد هوالذي صنع السماء والأرض .

ثم انتقلت إلى القسم الثالث فبيَّنت ألوهية السيد المسيح وأنه واحد مع الآب والروح القدس وأنه تجسد وخلص البشر بآلامه وموته وسردت أقوال الأنبياء في العهد القديم ثم ما جاء في كتب «السَبْلة» النبوية الوثنية التي يعترف بها الإمبراطور نفسه وعلماؤه وطبَّقَتها على ما جاء في العهد الجديد عن حياة المسيح المخلِّص وموته .

وقالت لهم :
ــ هذا أبولون يقول : «ذلك الذي هو النور والشعاع المتوهج ، ذلك الذي هو إله وإنسان معاً ــ لم يتألم أبداً في لاهوته ولكن بالجسد قاسى كل الإهانات والموت والدفن ، وغيَّرَ كثيراً من الأنفس في حياته» . هذه هي بالضبط كلمات أبولون أَستَدِلُّ بها هنا . ألا تعتقد أنه عليك أن تكفَّ عن عباداتك لكي ما تقدمها إلى ذلك الذي عرفه أبولون أنه إله ؟

وعندما رأت كاترين الإنصات المضطرد من السامعين ، والإهتمام الذي أُعطي لشرحها مضت في موضوعها العظيم الذي بدأته وأطلقت كلماتها على جمع

الفلاسفة والعلماء والنبلاء... إلى أن انعدم تأثير عبادة آلهة الوثنيين على هذه العقول... ثم اعترفت لهم بأن قوة علوية هي التي تستولي الآن على نفسها وعلى شفتيها وهي التي وضعت في فمها كل كلمة وكل منطق.

وأنهت كاترين خطابها، وقد استولت على كل النفوس وربحت للرب كل القلوب.

أما الإمبراطور ففي ضيق شديد رجا العلماء أن يدافعوا عن الدين القويم...

وتردد العلماء والفلاسفة ثم كانت المفاجأة... بدأوا يشرحون لمكسيميانس باحترام شديد فائدة مواصلة تلك المناظرة. وأوضحوا أن الفتاة الصغيرة قد قالت الحق وأنهم مقتنعون بكلامها، وأنهم كانوا قبل ذلك الحين على خطأ... وهم بريئون من عبادة هذه الآلهة و يؤمنون من الآن فصاعداً بالرب يسوع المسيح الذي عرفوه من كلام هذه الفتاة، وسيعبدونه على أنه الإله الحقيقي الواحد.

واشتعل غضب الإمبراطور. وأصبح الإجتماع الذي كان حلقة نقاش فلسفي على وشك التحول إلى مأساة. ولقد كان الإمبراطور — في الحقيقة — يريد أن يهزم الفتاة لتصير بعد ذلك طوع شهواته الدنيئة. لكنه الآن أصبح محرجاً مسلوب الكرامة وتحول إلى وحش مفترس وأمر بإيقاد أتون نار، ليلقي فيه العلماء والفلاسفة الذين خذلوه ولم ينساقوا وراء نزواته.

وأشعل الحراس أتون النار في ردهة واسعة داخلية بالقصر.

وشاهد العلماء والفلاسفة نهايتهم فارتموا تحت أقدام كاترينا يسألونها صلواتها... فشجعتهم الفتاة وأكدت لهم أن السماء مفتوحة لهم الآن...

وفجأة انفتحت أبواب الصالة الفسيحة... وتقهقر مندوب الإمبراطور إلى الوراء،

بينما تقدم العلماء ليقبض الحراس عليهم و يدفعونهم وسط الفحم المتّقد... وكان ذلك ليلة ١٧ نوفمبر.

و بعد أن انطفأت النيران مخلفة وراءها رماد عظام هؤلاء الأبطال تقدم المسيحيون ليجمعوا ما بقي منهم من عظام وملابس ثم قاموا بدفنهم.

كاترينة تقول: لا ...

لا نستطيع أن نعبّر عن مدى الحزن الذي تركته هذه المأساة في المدينة الكبيرة التي بالرغم من أنها اعتادت أن تشاهد دماء الناس سائلة، إلا أنها رُوِّعت من هذه المذبحة التي كان ضحيتها عشرات من أعظم فلاسفة المدينة وحكمائها.

أما الإمبراطور الغاشم فقد أفاق من سكرته في اليوم التالي... وشعر بالضيق في نفسه وأراد أن يتراجع عن قساوته الجنونية التي حدثت بالأمس... لذلك أمر بدعوة كاترينا إلى قصره و بإكرام وفادتها.

ولما حضرت أخذ يطلب منها السماح. والحقيقة أنه كان شديد الإضطراب وكان أمراً ثقيلاً على نفسه أن يقوم بهذه المهمة. ولما مثلت الفتاة أمامه اتخذ لهجة رقيقة لطيفة وكانت عنده سعة صدر غير مألوفة... وكان لطيفاً مرحاً.

ثم خاطب كاترينا قائلاً:

ـ يا ابنتي العزيزة، ها أنتِ ترين المحبة الأبوية التي أُكنُّها لكِ. لذا أرجو أن توافقي على أن تقدمي لي ذبيحة لأشتري بها رضاء آلهة الشعر التي أنتِ مديونة لها بالحكمة المذهلة الظاهرة في شخصك وحينئذ سيصير قصري مأوى لكِ، وتصيرين ابنتي، وكل ما ترغبينه أُحققه لكِ!!

فردت عليه كاترينا على الفور:

ــ كُفّ أيها القيصر عن أن تجزل لي من كلام التملق فهو لا يؤثر عليّ ولا يغير من طبعي... لقد عزمت على أن أفقد حياتي أفضل من أن أنكر يسوع المسيح إلهي. لقد اتخذني عروساً له وأعطاني خاتم العرس، وأنني واثقة أنه سيغدق عليَّ من هباته عندما يلبسني ثوب الإستشهاد الذي هو في نظري أثمن من ثوب الأرجوان الملكي نفسه.

فقال لها الإمبراطور:

ــ إحذري لأني أستطيع أن أُذِلّ عنادك وأُلبسك ثوب الإستشهاد الذي تتحدثين عنه... سوف أعذبك.

ــ إعمل ما تراه حسناً ــ ولا تظن أن إلحاحك سيخضعني مهما كانت قسوتك لأن المكافأة التي سأنالها أبدية. وأنا واثقة أن عريسي يسوع المسيح سينظر إلى ضعفي ويتكرم بإنارة قلوب أهل بيتك أيضاً. نعم يا له من كنز ثمين أن يحصلوا على خلاص نفوسهم!!

ولما رأى مكسيميانس أن سياسته لم تعد تجدي، ثارت ثائرته وأمر بأن تجلد. فأخذوها في الفناء وجلدوها جلداً عنيفاً مدة ساعتين إلى أن تمزق جلدها.

والمشاهدون الذين اعتادوا مثل هذا المنظر لم يقووا على رؤية الفتاة بهذه الصورة فبكوا من التأثر.

أما الثبات الذي تذرعت به كاترينا أمام التعذيب فقد جعل الجميع يظنون أن جسمها من الحجر.

ثم أرسلوها إلى سجن القصر، فذهبت تُسبّح الرب وتشكر له ما أسبغه بواسطتها

على النفوس من المواهب والنعم . وهناك ظلت ١٢ يوماً متتالية عالها الرب وضمّد جراحاتها .

أما مكسيميانس فذهب إلى مصب النيل لتفتيش القلاع والحصون على الحدود المصرية الشمالية .

كاترينة تربح للرب نفوساً جديدة

كانت فوستان زوجة الإمبراطور قد رأت كاترينا يوم ذلك الاجتماع الشهير وأعجبت بها في قلبها... ولم تستطع هذه السيدة أن تُمحي من ذاكرتها صورة هذا المشهد ولا وصف هذه المرأة الباسلة الراغبة في حياة أبدية ليست من هذا العالم .

وزاد على ذلك أن حلمت فوستان أنها رأت كاترينا تتلألأ بهاءً وهي جالسة على عرش من نور ورأتها وقد دعتها إلى الجلوس بالقرب منها وجعلت لها إكليلاً على رأسها وقالت لها : أيتها الملكة العظيمة إن عريسي هو الذي يهدي إليكِ هذا الإكليل .

فلما استيقظت رغبت أن ترى كاترينا وطلبت من بورفيروس قائد السجن ذلك . وسهل القائد لها الزيارة بعد أن أبلغ السجينة . وكم كانت فرحة كاترينا وهي في حضرة هذه الضيفة الكبيرة . وأما فوستان فقد شعرت باضطراب عظيم حينما شاهدت كاترينا وقد شفيت ، وها هي تتكلم بحكمة وسلطان وظلت كاترين تكلمها عن السيد المسيح وعن ملكوت الله وعن الازدراء بنعيم الدنيا و بخيراتها الزائلة .

وفتح الرب قلب الملكة فآمنت . و بورفيروس القائد أيضاً الذي كان ينصت

للحديث نُخس في قلبه وآمن بالرب يسوع . ثم قاموا جميعاً يرفعون صلاة تسبيح للرب .

ولكن كاترينا تنبأت لهما بأنهما سيعاينان بعد ثلاثة أيام صنوف الآلام . فأبديا استعدادهما حتى إلى الموت .

عاد مكسيميانس من رحلته وكان أول ما فعله أنه فتح السجن وظن أنه سيلقى هناك جثة ميتة . ولكن يا للمفاجأة فها هي كاترين تتنفس وقد تحسنت صحتها تحسناً ملحوظاً وازدادت بهاءً وإشراقاً .

فأخذ يلح عليها أن تقبل الزواج منه ، أما هي فوبخته بشدة على نقضه للقوانين إرضاءً لكبريائه وشهواته . ولم يستطع مكسيميانس أن يحتمل تهكم كاترينا عليه فخرج غاضباً من السجن :

وكان هناك حارس خاص للإمبراطور، وهو حاكم إحدى المقاطعات هذا سمع بقصة كاترين وعنادها فتقدم من الإمبراطور وقال له : يا أيها القيصر العظيم ، أَعِدَك بأني سأكتشف لك بعض أنواع التعذيب يضع حداً لعناد هذه الفتاة . عندي فكرة آلة بعجلات تدور بحركة عكسية سأزودها بقطع من الحديد مسننة ، فعند دورانها تحدث فرقعة مخيفة ـــ ستموت هي من الخوف ، وإذا لم تضع هذه الآلة حداً لعنادها فيمكن أن تقتلها الآلة .

وأعجب الإمبراطور بهذه الفكرة ووافق على ذلك . فبدأ هذا الرجل في عمل الآلة حسب ما وصفها .

ولكن الإمبراطور لم يكف عن محاولة زعزعة إيمان كاترين ولكن محاولاته باءت بالفشل .

وفي مكان متسع وضعوا الآلة الجهنمية التي كانت تدور وتحدث فرقعة شديدة وذهبوا إلى السجن حيث كانت كاترين، واقتادوها إلى هناك وكانت كلما اقتربت، سمعت الضجيج والفرقعة ولا تدري ماذا وراءها.

ووقفت كاترينا أمام الآلة الضخمة الممتلئة بالأسنان الحديدية الحادة وابتسمت ابتسامة كلها ثقة وطمأنينة. ورأى قائد الآلة أنه لابد أن يفعل شيئاً أكثر من إزعاج كاترينا. فقاد كاترينا إلى حيث الأسنان الحديدية. فانقادت بسهولة ولكن قلبها كان مع يسوع أكثر من أي وقت مضى، وطلبت منه عوناً وحماية. وعندما أعطى القائد أوامره، بدأ الجلادون يديرون الآلة الرهيبة بأكثر قوة لكي تسحق جسد كاترين. ورُبطت كاترين بحبال متينة لكي يرفعوها ثم يُنزلوها على الأسنان الحادة التي للآلة.

ورفعوا كاترين إلى أعلى، ولكن إذا بيد خفية تمتد وتقطع الحبال وتدحرجت كاترين على الأرض ولم يصبها سوء.

وأسرع الجلادون يحاولون أن يأخذوها من على الأرض ليرفعوها ثانية، ولكن خانتهم قواهم إذ اجتذبتهم الآلة نفسها وقطعتهم السنون الحادة.

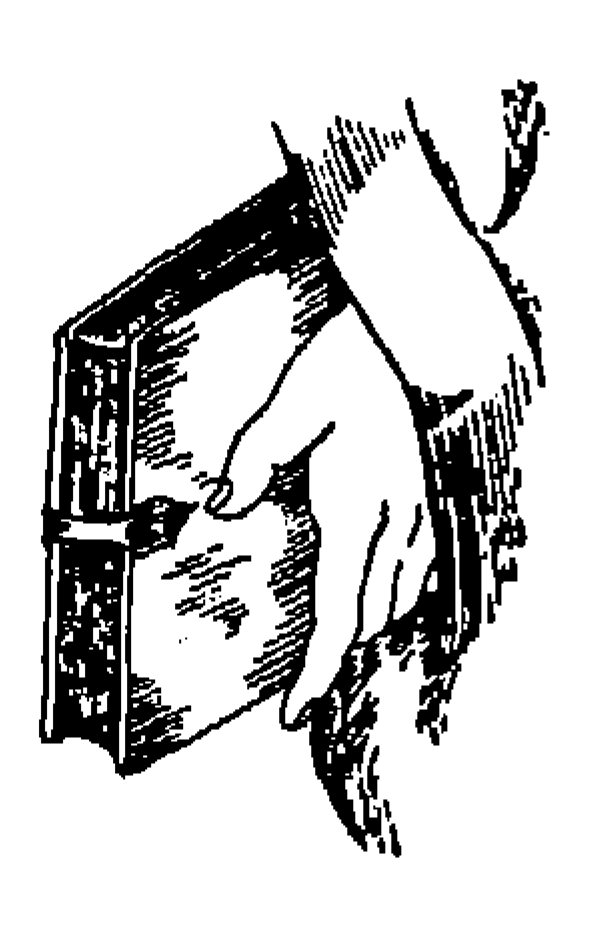
في الطريق إلى العرس

لقد مَجَّدَ كثيرون الله. وكانت بينهم فوستان زوجة الإمبراطور.

وذهبت فوستان فور رؤيتها هذا المنظر إلى زوجها، وأخذت تلومه على أفعاله وتقول له: إنه كان عليه أن يترك هذه الإبنة تذهب حرة وأن يذعن للحق أمام العجائب الباهرة التي جرت على يديها وأن يترك شروره و يؤمن بالمسيح، فيخلص!

وجن جنون الرجل لمّا سمع ذلك الكلام من امرأته وعرف أنها صارت مسيحية هي و بورفيروس القائد . فأمر الجند بتعذيبهما ثم قطع رأسيهما...

وتم ذلك في مشهد مؤثر جداً... إذ استشهدت زوجة مكسيميانس والقائد بورفيروس ومئتان من الجند أيضاً آمنوا بالمسيح على مثال قائدهم...



رمز الكتاب : يُرسم عادة في أيقونات القديسين والقديسات المشهورين بثقافتهم وعلمهم أوبكتاباتهم . وفي أيقونات القديسة كاترينا الإسكندرانية يُرسم عادة كتاب ممسوك في يدها ، لأنه مذكور في سيرتها أنها كانت مثقفة بثقافة جيلها إلى جانب علمها الروحي واللاهوتي ، مما جعلها تتفوق على علماء وفلاسفة عصرها .

العروس تنطلق إلى عريسها

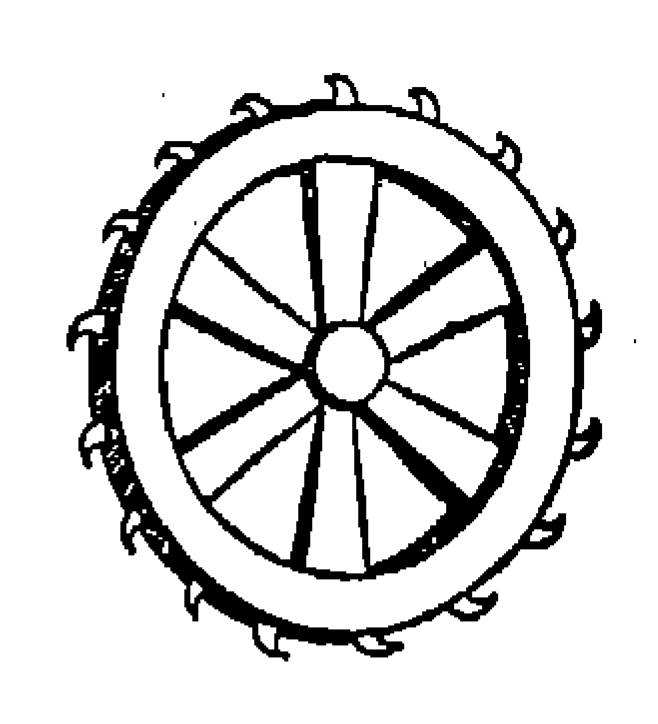
ونمى إلى علم الإمبراطور فشل تجربة الآلة الرهيبة، فاشتد غيظه وخاف لئلا يصير سخرية أمام الناس بسبب هذه الأميرة الشابة «كاترينا» التي لم يستطع مقاومة إيمانها. فأعلن نفيها ومصادرة كل أموالها... وكان يقول في نفسه: لعلها تحت ضغط الحاجة تخور وتقبل مطالبه...

أما كاترين فقبلت بفرح هذه التجربة الجديدة التي أرسلها لها عريسها السماوي. وتأسفت لأنها لم تستطع سفك دمها حباً له.

ولكن الإمبراطور انتابته نوبة جنونية، فأمر بقطع رأسها بالسيف بدل ذهابها إلى المنفى.

وبينما هي في ساحة الإعدام، قدمت شكراً قلبياً إلى الله على نعمة الإستشهاد، والتمست منه بحرارة أن يبدد ظلام الوثنية ويشرق على العالم بنور ابنه الحبيب. ثم طلبت أن يرحم الرب كل من طلب منها شفاعة وصلاة. ثم ركعت وأمرت الجلادين أن يكملوا واجبهم فضربوا رأسها.

واستشهدت كاترينا وكان ذلك في يوم ٢٥ نوفمبر سنة ٣٠٧ م.



آلة التعذيب ذات العجلات المسننة: التي كانت أداة التعذيب للقديسة كاترينا. رمز مسيحي في فن رسم الأيقونات المسيحية. ويُرسم عادة في أيقونتها.

أكرم الذين يكرمونني

هذه القصة يحكيها رهبان جبل سيناء :

بعد أن استشهدت القديسة كاترينا ، حمل بعض الرهبان جسدها إلى أحد مرتفعات جبل سيناء (هذا المرتفع يحمل اسمها الآن : جبل كاترين) . وظل الجسد مسجى هناك حوالي خمسة قرون في حفرة من الصخر .

ولمّا أرادت العناية الإلهية أن تُظْهِرَ مجد هذه القديسة ، رأى أحد رؤساء الأديرة (دير التجلي) رؤيا : كنزاً ثميناً يخفيه الجبل ، فخرج بعض الرهبان ليبحثوا عن تفسير لهذا الكنز، فقال لهم رجل عجوز في الجبل : أنا بُشِّرت مرات كثيرة من السماء للبحث عن هذا الكنز، ولكني خشيت لئلا يكون تجربة من الشيطان للخروج من عزلتي . ولكني الآن بصحبتكم فلا أخشى شيئاً . فلنذهب إلى هذه القمة العالية من الجبل حيث رأيت نوراً يسطع عدة مرات... لابد أنه يحوي شيئاً مقدساً !

وحاول الرهبان جاهدين حتى استطاعوا بعد جهد كبير أن يتسلقوا هذه القمة ، وهناك وجدوا جسد عذراء موضوعاً في صخرة معوجة . فتأكدوا أن هذا هو الكنز الموعود ، فقاموا بالصلاة شاكرين الله وطلبوا منه أن يعين لهم اسم وأعمال هذه القديسة .

وفي أثناء صلواتهم وصل إليهم شيخ آخر، أخذ يتسلق الصخور إلى أن وصل إلى مكان تجمعهم وقال لهم : إخواني ــ أرسلني سيدي إليكم لأعرفكم اسم وحياة وأعمال ومجد هذه العذراء ، ثم أمرهم أن يحملوا الجسد الطاهر إلى الدير، إذ سيأتى شعوب من أقاصي الأرض ليعاينوا هذه الوديعة .

ثم قبّل الجسد في وقار ونزل مسرعاً على الجبل ثم اختفى إلى الأبد...

ومن هذا الوقت صارت القديسة كاترين شفيعة أديرة ذلك المكان...

و يشمل بقايا جسد القديسة المكرمة في سيناء: الرأس عارية متوجة بالزمرد. واليد اليسرى مغطاة بجلد أسود مغضن مزين بخواتم بها أحجار نادرة وكريمة.

وتُصوَّر كاترينة لابسة تاجاً إشارة إلى نسبها الملكي، ومُمسكة بيدها فرع نخيل رمزاً إلى نصرتها، وسيفاً إشارة إلى طريقة استشهادها. وأحياناً يصورونها ممسكة بكتاب رمزاً إلى ثقافتها العالية.



جسد القديسة كاترينا محمولٌ بأيدي ملاكين
(أيقونة من الفن السينائي، يرجع تاريخها لسنة ١٦١٢م)

من سير القديسين والقديسات

١ ــ القديسة مريم المصرية
٢ ــ القديسة بيلاجية التائبة
٣ ــ القديسة كاترينة شهيدة الإسكندرية
٤ ــ القديسة مونيكا أم القديس أوغسطينوس

تطلب من :
دار مجلة مرقس
القاهرة : ٥٠ «ا» شارع شبرا ــ ص. ب ٣١ شبرا
تليفون ٧٧٠٦١٤

(١٠٢)

الثمن ٧٠ قرشاً